

البيان الحاكي في القرآن الكريم (التصوير الصامت)

د. بدرية بنت محمد بن حسن العثمان (*)

الملخص

تقوم هذه الدراسة على البحث عن الصور البلاغية الجزئية والكلية في بعض آيات القرآن الكريم، وهي الآيات التي تتحدث عن شواهد قائمات في الطبيعة الصامتة، تشهد بالوحدانية، وكمال القدرة الإلهية، وقد وقع الاختيار على آيتين من كتاب الله تتحدث عن بديع صنع الله في أرضه، متمثلة في إخراج الزروع والثمار المختلفة من ماء واحد، وتصف تلك العملية بدقة متناهية تدل على القدرة الباهرة في أسلوب بلاغي معجز.

والآية الثانية أيضاً تتحدث عن الطبيعة الصامتة متمثلة في خلق الجبال والأنهار وفائدة ذلك، وتعرضه بأسلوب بلاغي رائع.

وقد بدأت الدراسة بالحديث عن تعريف البيان في اللغة، والاصطلاح، والمراد بالبيان الصامت كما ذكره الجاحظ، وبعض الخطباء وبعض علماء البلاغة قديماً وحديثاً.

ثم تبدأ الدراسة البلاغية لآية الأنعام، وآية النحل، وهما تمثلان جزء من الطبيعة الصامتة، والبيان الحاكي في كتاب الله، وقد حاولت جهدي الإطلاع على أقوال المفسرين والبلاغيين في أسرار هذه الآيات، وعرضت للصور البلاغية الجزئية، ثم الصور الفنية الكلية في الآيتين، وذيلت الدراسة بالخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع.

(*) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب - جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وعلى آله وصحبه، ومن أتبع هداه إلى يوم الدين، وبعد،،
فإن القرآن الكريم رسالة عالمية، تلج فيه العقول جيلاً بعد جيل، وتتسلمه الهمم قاصرة عن بلوغ شأوه.

إن السر في إعجاز هذا القرآن كونه رسالة تبصرة شاء الله أن ينقذ به عباده من الضلالة إلى الهدى.

وقد شغل هذا الكتاب الناس منذ أن تبلغوه، ولا يزالون، وسوف يظلون تتقد أمامه بصائرهم، وأبصارهم، فيتأكد إيمانهم، ويثبت يقينهم بما ينبجس من إفهامهم، وما يستضيئون به من نور آياته.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم متعددة أضاعت الآفاق، وحيرت العقول، وألجمت الأفواه. ومن توفيق الله - عز وجل - لي أن انجذبت إلى بعض أنواره، وكله نور، أقتبس منها ما أتمنى أن أسهم به في خدمة هذا الكتاب العظيم. ويسر الله - بفضله - هذه الدراسة التي حاولت فيها أن أوجه الأنظار إلى شيء من دلائل القدرة الإلهية ماثلة أمام أعيننا صباحاً وعشياً في صفحة الكون العظيم فلا تهتز لها مشاعرنا، ولا تحرك عقولنا لتتفكر في عجائب صنع الله، وبديع خلقه.

لذا رأيت أن أقف عند آيتين عظيمتين، تصف الطبيعة الصامتة، فاستجلي دقائقها من خلال نظمها، وما تكشف لنا من حقائقها، وقد قامت هذه الدراسة على ما يأتي:

١- الملخص وفيه حديث موجز عن هذه الدراسة.

٢- المقدمة.

٣- الدراسة وقد بدأت بتعريف البيان في اللغة، والاصطلاح، وعند بعض العلماء قديماً، وحديثاً، وتحدثت عن المراد بالبيان الحاكي، أو التصوير الصامت عند علماء البلاغة قديماً، وحديثاً.

٤- دراسة الآيات وقد رأيت أن أقف عند آيتين من الآيات الكونية تتحدث عن دلائل القدرة الإلهية في الآيات الأرضية، وأوردت آية تتحدث عن بديع خلق الله في الزروع، والثمار، وعرض تلك العجائب بأسلوب بلاغي معجز. والآية الأخرى تتحدث عن جانب آخر في هذه الطبيعة وهي صورة الجبال وأسرار خلقها وفائدتها، وعرض ذلك بأسلوب كمل في الروعة والإعجاز.

٥- الخاتمة، وفيها ذكرت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، والتوصيات التي يراها الباحث للمهتمين بهذا المجال.

* *

البيان في اللغة:

ما يُبَيَّن به الشيء من الدلالة وغيرها. وبيان الشيء بياناً: أُنْصَح، فهو بَيَّن^(١).

البيان في الاصطلاح:

عرض الجاحظ لهذا المعنى فقال: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناتاً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فأَي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"^(٢).

وقيل أيضاً "أنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة"^(٣).

وجعل ابن الأثير موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة^(٤). وعلى هذا نجد أن معنى البيان هو الطريقة التي توضح بها المعنى الذي يجول في صدرك. وقد جعل الجاحظ أصناف الدلالات على المعاني خمسة أشياء هي: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النصب، وفسر كل واحد منها^(٥)، والذي يعنينا في هذا المقام هو القسم الخامس وهو: ما أسماه الحال أو النصب، وقد عرفها بأنها الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشييرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد، ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة التي

(١) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، مادة (بين).

(٢) أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجمع، ١٩٦٨م، ج ١/ ٥٥.

(٣) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الفكر العربي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م، ص ١٢٠.

(٤) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القجالة، القاهرة، ٣٧/١.

(٥) أنظر الجاحظ، البيان والتبيين، ٥٦/١ - ٥٩.

في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان^(١).

وقد وقفت أمام عبارته "الصامت الناطق" وقلبتُها فوجدت فيها ماهزني للوقوف أمام هذا المعنى الرائع، وتأملته في آيات القرآن الكريم.

وقد بين "الجاحظ" هذا المعنى حين قال: ولذلك قال الأول: "سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجني ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابك اعتباراً".

وقال بعض الخطباء: "أشهد أن السموات والأرض آيات وآلات وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك، التي تجليت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر، ورجم الظنون، فهي على اعترافها لك، وأفئقارها إليك، شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات، ولا تحدك الأوهام، وإن حظ الفكر فيك، الاعتراف لك"^(٢).

إن البيان الحاكي، أو التصوير الصامت الذي أشار إليه الجاحظ فيما وضحنا سابقاً بالصامت الناطق، قد تحدث عنه علماء البلاغة قديماً أثناء عرضهم للتشبيهات والاستعارات والكنائيات، أما في العصر الحديث فنجد أن "سيد قطب" استطاع أن يبرع في إظهار هذا الجانب من خلال فكرة التصوير الفني في القرآن الكريم التي تجلت في كتبه^(٣)، حيث جعل التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وتوسع في معنى التصوير الفني في القرآن، فجعله تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وجعل الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق تشترك جميعها في إبراز الصورة التي تتملأها العين، والأذن، والحواس والخيال، والفكر والوجدان، وجعل التصوير الفني منتزع من عالم الأحياء، وليس مجرد ألواناً أو خطوطاً جامدة، وجعل الأبعاد والمسافات تقاس فيه بالمشاعر

(١) المصدر السابق.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ٥٩/١

(٣) تفسير في ظلال القرآن الكريم، والتصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن.

والوحدانات، وجعل المعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة^(١).

إذاً التشكيل البلاغي للتصوير في القرآن الكريم ليس فقط ما في هذه الصورة من استعارة أو تشبيه أو كناية أو مجاز مرسل أو غيرها، بل إنه يعني ذلك البناء الواسع الذي تتحرك فيه هذه التركيبات مجموعة من التشكيلات بعلاقاتها المتعددة حتى يصير متشابك الحلقات والأجزاء بخيوط دقيقة مضمومة بعضها إلى بعض لتشكل في النهاية الصورة الفنية^(٢). فهو "ينظر إلى الصورة الكلية، التي تتكون من صور جزئية تصنع مشهداً ما، فتحيله إلى حياة متحركة، يتسق فيها اللفظ، مع التركيب، مع الصورة، مع المضمون"^(٣).

وإذا تحدثنا عن التشكيل البلاغي وفق صورة من الصور البلاغية التي تحدث عنها العلماء فلا بد من الإشارة إلى الغرض الفكري البياني من ورائها، ولاشك في أن الفكر الذي تحمله الصورة البلاغية القرآنية هو ما يميزها عن غيرها من الصور^(٤).

لأن القرآن الكريم ليس مجرد صور بلاغية ولوحات فنية، بل إنه كتاب عقيدة وشريعة، ومنهاج حياة دنيوية يهدف إلى حياة أخروية خالدة، والقرآن الكريم يوجه العقل الإنساني بكل ما منحه الله من قوة إلى النظر والتفكر في ملكوت السموات

(١) أنظر سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة، ط ٩، ص ٣٤-٣٥.

(٢) أنظر د. محمد محمود القاسم، البلاغة القرآنية، دراسة في الصورة الفنية، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، ط ٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ٥٩ وأنظر د. جبير صالح الفرغولي، التصوير الفني في القرآن الكريم، دراسة تحليلية في جهود الباحثين، دار الضياع، عمان، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٣) د. حلمي محمد القاعود، مدخل إلى البلاغة القرآنية، دار النشر الدولي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ١٤٨.

(٤) أنظر محمد القاسم، البلاغة القرآنية، دراسة في الصورة الفنية، ص ٥٩-٦٠.

والأرض، ليكشف الحجب ويرفع الستر، ويفسر آيات الله في الأنفس والآفاق، لأنها
 عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده، وباهر قدرته^(١)، قال تعالى :
 ﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفْ
 بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٥٢) ﴿ فصلت: ٥٣

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَن
 عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨٥) ﴿ الأعراف: ١٨٥
 قال تعالى: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ يونس: ١٠١

وقد ساق القرآن الكريم الآيات الكونية بأساليب مختلفة في التعبير، فهو يفصل
 مرة، ويجمع أخرى، ومرة يجمع الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية، وأخرى يذكر
 الآيات الأرضية منفردة للتنبية على عموم الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس، وقد
 يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن
 الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء، مع تيسير السبيل للعامة من النظر المتأمل
 الذي يحرك الوجدان ويوقظ الإحساس فتتوثق عرى الإيمان في القلوب^(٢).

وفي هذه الدراسة سوف أشير إلى نماذج من الآيات الأرضية وأتحدث عن
 أسلوب القرآن الكريم من خلال الصور الجزئية التي تبنى على جزئياتها الصورة
 الكلية.

نأمل ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
 نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا

(١) أنظر محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، دار الاتحاد

العربي، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص ٤٧٤-٤٧٥

(٢) أنظر السابق، ص ٣٦٨-٣٦٩

قَتَوْنَ دَانِيَةً وَجَدْتِ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ الأنعام: ٩٩

نجد أن هذه الآية من الآيات التي تتحدث عن دلائل القدرة الإلهية، وقد ذكر "الرازي" أنها تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحكمته، ورحمته، ووجوه إحسانه إلى خلقه.

وقال: كما أنها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة، وإحسانات كاملة، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيماً، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذه الطريقة^(١).

وقد بدأ الآية بقوله: "وهو الذي أنزل" والمقصود الأول من هذه الخبر الاستدلال على وحدانية الله تعالى بالإلهية، فلذلك صيغ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمُسند إليه^(٢)، "أنزل" بقدرته، وعلمه، وحكمته^(٣).

"من السماء" ابتدائية، لأن ماء المطر يتكون في طبقات الجو العليا، فالسماء اسم لأعلى طبقات الجو حيث تتكون الأمطار^(٤).

"فأخرجنا به" الفاء للتفريع، لما كان تفريع الخلق من الماء بمكان من العظمة لا يوصل إليه، نبه عليه بالانتقال إلى التكلم في مظهر العظمة^(٥)، وفيما سبقه قال: "أنزل" بضمير الغائب ثم قال: "فأخرجنا" بأسلوب العظمة، وهذا يسمى التفاتاً، وقد قال عنه

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، م ٧، ج ١٣، ١٠٥.

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ط ١، ج ٦،

٢٣٤.

(٣) برهان الدين أبي الحسن إبراهيم النبعاوي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج ٢/ ٦٨٤.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ط ٦، ٢٣٩.

(٥) نظم الدرر، ج ٢/ ٦٨٥.

الرازي أن قوله: "فأخرجنا" صيغة الجمع. والله واجد فرد لا شريك له، إلا أن الملك العظيم، إذا كنى عن نفسه، فإنما يكنى بصيغة الجمع^(١).
"به" الباء للسببية، جعل الله الماء سبباً لخروج النبات^(٢).

"نبات كل شيء" النبات اسم لما ينبت، وهو اسم مصدر نَبَتَ، سمي به النبات على طريقة المجاز الذي صار حقيقة شائعة فصار النبات اسماً مشتركاً مع المصدر^(٣)، وذكر الزمخشري أن السبب واحد وهو الماء، والمسببات صنوف مفتتة^(٤).

وقد خص سبحانه- النبات بالذكر في هذا الموضع مع أن كل حي يحتاج إلى الماء، لأنه أكثر الكائنات الحية تفاعلاً مع الماء، إذ هو غذاؤه وحياته، أما الكائنات الحية الأخرى فتعتمد على الطعام في غذائها إلى جانب الماء^(٥).

"فأخرجنا منه خضراً" تفصيل لمضمون جملة "فأخرجنا به نبات كل شيء" فالفاء للتفصيل، و "من" ابتدائية أو تبعيضية، وهذا تقسيم الجنس إلى أنواعه^(٦)، والخضر: شيئاً غضاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة^(٧)، وقال الليث: الخضر في كتاب الله هو الزرع، وفي الكلام كل نبات من الخضر، وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير، والسلت، والذرة، والأرز، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولاً ويكون السنبل في أعلاه^(٨).

(١) التفسير الكبير، م ١٠٧/٧

(٢) التحرير والتنوير، ط ٢٣٩/٦

(٣) السابق.

(٤) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج ٥١/٢، ط ٣-١٤٠٧هـ، م ١٩٨٧.

(٥) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، م ٣/٨/٢٤٨

(٦) التحرير والتنوير، ج ٢٣٩/٦

(٧) الكشاف، ٥١/٢

(٨) التفسير الكبير، م ٧/٧ج ١٠٨/١٣

"تخرج منه حباً متراكباً" زاد في بيان عظمته بقوله: "تخرج" أي حال كوننا مقدرين أن نخرج من ذلك الخضر^(١)، حباً متراكباً بعضه على بعض في سنبلة واحدة، وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات متراكبة بعضها فوق بعض، ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة^(٢)، والتفاعل في قوله: "متراكباً" للمبالغة في الركوب^(٣).

وبعد أن ذكر ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى، وهو القسم الثاني فقال: "ومن النخل من طلعها قنوان دانية". وهذه الجملة عطفت على "فأخرجنا منه خضراً" ويجوز أن تكون معترضة والواو اعتراضية، والمقصود بالإخبار هنا التعجيب من خروج القنوان من الطلع وما فيه من بهجة، وبهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها، وما بعدها، إذ لم تعطف أجزاؤها عطف المفردات، على أن موقع الجملة بين أخواتها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة والمنة^(٤).

وقدّم في الآية ذكر الزرع على ذكر النخل، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل^(٥)، لأن الحب قوت في أكثر البلاد ولأغلب الحيوانات، والغذاء مقدم على الفاكهة^(٦).

والتعريف في "النخل" تعريف العهد الجنسي، وإنما جيء بالتعريف فيه للإشارة إلى أنه الجنس المألوف المعهود للعرب، فإن النخل شجرهم، وثمره قوتهم، وحواطه منبسط نفوسهم^(٧).

(١) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٥

(٢) التفسير الكبير، م ٧/ج ١٣/١٠٨

(٣) التحرير والتوير، ج ٦/٢٤٠

(٤) السابق.

(٥) التفسير الكبير، م ٧/ج ١٣/١٠٨

(٦) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٥

(٧) التحرير والتوير، ج ٦/٢٤٠

"من طلعتها" الطلع أول ما يرى من عذق النخلة^(١)، وهو وعاء عرجون التمر الذي يبدو في أول خروجه يكون كشكل الأترجة العظيمة مغلقاً على العرجون، ثم ينفتح كصورة نعلين فيخرج منه العنقود مجتمعاً، ويسمى حينئذ الإغريض، ثم يصير قنوا^(٢).

و "قنوان" جمع قنوا^(٣)، وهو العذق بالكسر للشمراخ وهو الكباسة، والعرجون عوده الذي يكون في البسر^(٤).

"دانية" سهلة المجتئ، معرضة للقاطف، كالشيء الداني القريب المتناول، ولأن النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول. وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض. وقيل: ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة، لأن النعمة فيها أظهر، وأدل بذكر القريبة على ذكر البعيدة^(٥).

"وجنات من أعناب" أي بساتين^(٦) "من أعناب" "من" اليبانية لأن الجنات للأعناب بمنزلة المقادير كما يقال جريت تمرأ^(٧)، و "أعناب" جمعها لكثرة أنواعها، وبدأ بهاتين الشجرتين لفضلهما كما تقدم على غيرهما، لأن ثمرهما فاكهة وقوت، وقدم الأول لأنهم له أكثر ملابسة، وإن كان العنب أشرف أنواع الفواكه، فإنه ينتفع من أول ظهوره^(٨) "والزيتون والرمان" التعريف فيهما للجنس، والمراد بالزيتون والرمان شجرهما، وهما في الأصل إسمان للثمرتين ثم أطلقا على شجرتيهما، وهاتان الشجرتان وإن لم تكونا مثل النخل في الأهمية عند العرب إلا أنهما لعزة وجودهما في بلاد العرب ولتنافس العرب في التفكه بثمرهما والإعجاب باقتنائها ذكرا في مقام

(١) التفسير الكبير، م ٧/ج ١٣/١٠٨

(٢) التحرير والتنوير، ج ١/٦/٢٤١

(٣) الكشف، ج ٢/٥١

(٤) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٥

(٥) الكشف، ج ٢/٥١-٥٢

(٦) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٥

(٧) التحرير والتنوير، ج ١/٦/٢٤١

(٨) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٥

التذكير بعجيب صنع الله تعالى، ومنته. وكانت شجرة الزيتون موجودة بالشام وفي
سينا، وشجرة الرمان موجودة بالطائف^(١)، وقال صاحب الكشاف: والأحسن أن
ينتصبا على الاختصاص، لفضل هذين الصنفين^(٢)، وقدم الزيتون لكثرة منافعه، وختم
بالرمان ولهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة لحسنه وعظيم نفعه^(٣)، التي
هي أشرف أنواع النبات، وأكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقي^(٤).

"متشابهاً وغير متشابه" بعد أن ذكر الأقوات من الثمار والحبوب والأدهان،
وأشرف الفواكه، وأعمها، وكانت أشبه شيء بالآدمي في نشئه وبعثه، وإتقائه،
وإختلافه، وكان اشتباه بعضها، واختلاف بعضها، مع كونها تسقى بماء واحد، وفي
أرض واحدة، دالاً على القدرة والاختيار، وكان السياق لإثبات الوجدانية، ونفي
الشريك، بإثبات كمال القدرة التي هي منفية عن غيره، فلا يصح أن يكون له شريك،
وللبعث فكان المراد التفكير في ظواهرها وتقلباتها من العدم إلى الوجود، وبعد
الوجود^(٥)، قال: "مشتبهاً وغير متشابه" حال، ومعطوف عليه، والواو للتقسيم بقرينة
أن الشيء الواحد لا يكون مشتبهاً وغير متشابه، أي بعضه مشتبه وبعضه غير
متشابه، وقد أفرد ولم يجمع اعتباراً بإفراد اللفظ، والتشابه، والاشتباه مترادفان
كالتساوي والاستواء، وهما مشتقان من الشبه، والجمع بينهما في الآية للتقنن كراهية
إعادة اللفظ ولأن اسم الفاعل من التشابه أسعد بالوقف لما فيه من مد الصوت بخلاف
"مشتبه". وهذا من بديع الفصاحة^(٦)، والمعنى: بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه،
في القدر، واللون، والطعم، وذلك دليل على التعمد دون الإهمال^(٧)، والآية من
الاحتباك، أثبت الاشتباه دلالة على نفي ضده، وهو عدم التشابه، ولأجل أن الاشتباه

(١) التحرير والتنوير، ج ٦/٢٤١

(٢) الكشاف، ج ٢/٥٢

(٣) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٦

(٤) التفسير الكبير، م ٧/ج ١٣/١١٠

(٥) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٦

(٦) التحرير والتنوير، ج ٦/٢٤٢

(٧) الكشاف، ج ٢/٥٢

أبلغ من التشابه، علق الأمر بالنظر الذي هو أثبت الحواس، ودلالة على أن المراد إنما هو ظاهر ذلك، لأنه كان في الدلالة على البعث والتوحيد الذي هذا سياقه^(١).

"أنظروا إلى ثمره" بيان للجمل التي قبلها، المقصود منها الوصول إلى معرفة صنع الله تعالى وقدرته، والمأمور به هو نظر الاستبصار، والاعتبار بأطواره^(٢). لذلك قال "أنظروا" ولم يقل "كلوا" لأن المجال هنا مجال جمال ومبتاع^(٣).

"إذا أثمر" إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضئيلاً، ضعيفاً، لا يكاد ينتقع به، وأنظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع، وملاذ، نظر اعتبار واستبصار، واستدلال على قدرة مقتررة، ومدبره، وناقلة من حال إلى حال^(٤)، و "إذا" ظرف لحدوث الفعل، فهي بمعنى الوقت الذي يبتدئ فيه مضمون الجملة المضاف إليها، أي حين ابتداء أثماره.

"وينعه" لم يقيد بإذا أينع، لأنه إذا أينع فقد تم تطوره، وحان قطافه، فلم تبق للنظر فيه عبرة لأنه قد انتهت أطواره^(٥)، وهذا من دقة القرآن وعجيب فصاحته. والأمر بالنظر في حال الثمر أول حدوثها، وفي حالها عند تمامها وكمالها، هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية، ذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد في أول حدوثها على صفات مخصوصة، وعند تمامها وكمالها لا تبقى على حالاتها الأولى، بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة، ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع، والأنجم، والأفلاك، وجب إسنادها إلى القادر المختار، الحكيم، الرحيم، المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة^(٦).

ولما نبه الله سبحانه على ما في هذا الوجه اللطيف من الدلالة قال: "إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" قيل: المراد لمن يطلب الإيمان بالله تعالى، لأنه آية لمن آمن

(١) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٦

(٢) التحرير والتتوير، ج ٦/٢٤٢

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط ٧، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ج ٢/٧/١١٦١

(٤) الكشف، ج ٢/٥٢

(٥) التحرير والتتوير، ج ٦/٢٤٣

(٦) التفسير الكبير، م ٧/١٣/١١١

ولمن لم يؤمن، ويحتمل أن يكون وجه تخصيص المؤمنين بالذكر أنهم الذين انتفعوا به دون غيرهم^(١)، وهذه الجملة استئناف، وجاء اسم الإشارة الدال على البعد، وميم الجمع، للدلالة على عظم هذا الأمر، فهو عظيم الشأن، عالي الرتبة^(٢)، وجملة "إن في ذلكم لآيات" علة للأمر بالنظر. وموقع "إن" فيه موقع لام التعليل.

وقوله "لقوم يؤمنون" وصف للآيات. واللام للتعليل. والمعلل هو ماضي مدلول الآيات من مضمن معنى الدلالة والنفع. وقد صرح في هذا بأن الآيات إنما تنفع المؤمنين تصريحاً بأنهم المقصود في الآيتين الأخريين بقوله: "لقوم يعلمون" الأنعام: ٩٧، وقوله: "لقوم يفقهون" الأنعام: ٩٨ وإتماماً للتعريض بأن غير العالمين، وغير الفاهقين، هم غير المؤمنين، يعني المشركين^(٣).

ولعله من تمام الحديث عن اللطائف البلاغية التي عرضنا لها في هذه الآية أن نشير إلى آية أخرى مشابهة لها في السورة ذاتها وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام: ١٤١

وحيثما ننظر إلى الآيتين نجد أن هناك فرق بين الآيتين في التعبير فما السر في ذلك؟ في الآية الأولى نجد قوله: "والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه" وفي الآية الثانية قال: "والزيتون والرمان متشابهاً" أن سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله، وآياته الباهرة في خلقه، وأما سياق الآية الثانية ففي بيان الأظعمة وما يحلله، ويحرمه أهل الكفر افتراءً على الله وبيان عقائدهم الباطلة، فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته، والثانية في بيان ما يؤكل من الفواكه والزرع.

(١) السابق.

(٢) نظم الدرر، ج ٢/٦٨٧.

(٣) التحرير والتوير، ج ٦/٢٤٣.

وفي الآية الأولى بدأ بمرحلة ما قبل الإنبات وهو إنزال الماء من السماء، ولم يذكر ذلك في الآية الثانية. وفي الآية الأولى ذكر أنه أخرج نبات كل شيء على وجه العموم ولم يخصصه مما يدل على القدرة الباهرة، ولم يذكر ذلك في الثانية. وفي الآية الأولى ذكر تسلسل عملية النمو والإنبات، ولم يذكر ذلك في الثانية. وذكر في الأولى أنه أخرج منه حباً متراكباً، ولم يشير إلى الحبوب في الثانية، فالقصد من الآية الأولى بيان قدرة الله البالغة لذلك ذكر النخل وطلعها وقنوانها. أما في الآية الثانية فالمقصد الأول ذكر المطعومات فذكر ما يؤكل من ثمار الزرع واختلاف أنواعه وطعومه ولم يشير إلى الطلع والقنوان. وفي الأولى قال: "انظروا" وفي الثانية قال: "كلوا" وفي الأولى قال: "إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون" وهي الآيات الدالة على قدرته وبديع صنعه، وقال في الثانية: "ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" فختم بما يناسب السياق^(١).

وفي الآية الأولى قال: "مشتبهاً وغير متشابه" وفي الثانية قال: "متشابهاً وغير متشابه" إن الفعل "اشتبه" أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال، وإن "تشابه" أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشئين أو الأشياء، والمشاركة بينها في معنى من المعاني سواء أدى ذلك إلى الالتباس أم لم يؤد. ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شئين. وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أن الأمور المشبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لإدراك حقيقة أمرها. فوضع "مشتبهاً" في السياق الدال على قدرته وآياته، وقال في الموضعين "وغير متشابه" فنفي التشابه دون الاشتباه، لأن نفي التشابه ينفي الاشتباه، ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه فقوله: "وغير متشابه" أدل على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة، أو جعلها كلها مختلفة.

(١) د. فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآن، دار عمار للنشر، عمان، طه-

وبهذا نرى أن ما تم عرضها سابقاً إنما هو صور جزئية، وخيوط دقيقة لهذا المشهد المتميز، وبيان صامت لدلائل القدرة الإلهية، والوحدانية المطلقة للخالق جلّت قدرته وحينما ننظر إلى هذه الآيات نظرة كلية جامعة أطرافها، ونواحيها، نرى عجباً في قدرة الله وبديع صنعه، فننظر إلى هذا الوجود وكأننا نراه لأول مرة، حياً قد أُنحى بهامسنا، يهز مشاعرنا، يلامس شغاف قلوبنا، ناطقاً بدلائل القدرة الإلهية، يلفت أنظارنا إلى أن نتملى حسنه وبهاءه، ولكن بعيون المتعجبين، وقلوب المتفكرين. "يمضي السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض، تراها الأعين، وتستجليها الحواس، وتتدبرها القلوب، وترى فيها بدائع صنع الله.. والسياق يعرضها- كما هي في صفحة الكون- ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها، وشتى أشكالها، وشتى أنواعها، ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية، ودلالة على القدرة التي تدع الحياة، كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال"^(١).

نرى حشداً هائلاً من أدوات التصوير تضافرت في أروع صورها لتحريك هذا المشهد الصامت الذي نمر عليه ونراه ماثلاً أمام أعيننا كل يوم فلا يحرك مشاعرنا، لأننا قد ألفناه، وإذا قرأنا هذه الآية نرى موجات متواضعة متلاحقة تبلغ حد الروعة الباهرة في شتى المشاهد، وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة، والحيوية، الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري، وباللون والطعم، والشكل.

نرى المطر في حركته نزلاً، ونشم رائحة التربة الرطبة من آثار ذلك المطر، ونرى النبات يشق تلك الأرض المنتعشة، فتسري فيها الحياة بخروجه منها، ثم نرى اللون يضيف مزيداً من الحيوية والجمال على تلك البقعة من الأرض فإذا هو "خضر" وكانت هذه اللفظة أرق ظلاً كما يقول "سيد قطب" وأعمق ألفة من لفظ "أخضر"^(٢)، فنرى "الخضرة هي الروح السارية في حياة النبات، وبغير تلك الخضرة لا ينبض فيه عرق الحياة أبداً"^(٣)، ونرى دقائق هذه الصورة وكأنها أمام أعيننا، فهذا الحب يخرج

(١) في ظلال القرآن، م٢/ج٧/١١٦٠.

(٢) السابق م٢/ج٧/١١٦١.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، م٣/ج٧/٢٤٨.

متراكباً، أي يركب بعضه بعضاً في دقة متناهية، وإبداع محكم، فكأننا ننظر إلى ذلك الحب في صفوف منتظمة، متراكبة، وفي دقة متناهية.

ثم نتجه بنا الألفاظ إلى منظر سطور من النخل، تلك الشجرة المباركة، وتقلل لنا بدقة متناهية عجائب صنعها، فهذا طلوعها ينفلق أمام أعيننا ويخرج منه عذوق تحمل البلح ألواناً يتدلى بإبداع، وكل زوايا تلك الصورة ينقلها "من هذا الوصف الذي يشير إلى اشتهاؤ النفس لهذا الثمر الذي يحمله النخل، وتطلعها إليه، ورغبتها فيه، الأمر الذي يجعل بعيدة قريباً، وكل صعب في الوصول إليه هيناً... هكذا المحبوب المشتهى أبداً"^(١)، وتتوجه بنا الألفاظ إلى زاوية أخرى من الصورة فإذا بنا نرى لفظة "قنوان" ووصفها "دانية" يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف، وظل المشهد كله ظل وديع حبيب"^(٢).

ثم تتوجه بنا الألفاظ إلى زاوية أخرى من الصورة، فإذا بنا نرى بساتين قد ضمت عروش العنب، وأشجار الزيتون، ويجعل العيون والقلوب تقلب نظرها وفكرها في عجائب صنع الله فإذا بنا نرى "أفراد كل جنس من هذه الأجناس متشابهة في هيئتها وثمارها إلا أنها في حقيقة أمرها غير متشابهة، فبين كل شجرة وأخرى فروق دقيقة، في هيئتها، وفي ثمارها"^(٣)، ونرى السر في اختلاف النظم بين مشتبه ومتشابه قد جعلنا ننظر بعين الفكر إلى التشابه والاختلاف بين تلك الثمار. ثم يوجه توجيهها صريحاً إلى النظر بالحس البصير، والقلب اليقظ إلى هذه الزروع من حال ازدهارها، وإثمارها "يرى ذلك الجمال الرائع، والحسن الفتان، ليشيع في النفس البهجة والمسرة، ويثير في العقل أشواق وتطلعات إلى التعرف على أسرار هذا الجمال واستكشاف ينابيعه، ومصادره الأولى التي يجئ منها"^(٤)، ويفتح القلوب، وينير البصيرة، ويحرك

(١) التفسير القرآني، م ٣/ج ٧/٢٤٩.

(٢) في ظلال القرآن، م ٢/ج ٧/١١٦١.

(٣) التفسير القرآني، م ٣/ج ٧/٢٤٩.

(٤) السابق، م ٣/ج ٧/٢٥٠.

الوجدان، ويدعوا العقول إلى النظر لاستدلالي، والبحث الاستقصائي، حتى يصل الإنسان من خلال ذلك كله إلى الإيمان الحقيقي، وذلك هو الهدف المقصود.

"ومن هنا كانت دعوة القرآن بالنظر إلى الطبيعة، وهي في حال جمالها، وبهائها، وهي في الواقع دعوة ضمنية إلى التزود من العلم، والمعرفة، إذ يكون النظر إليهما في تلك الحال نظراً جاداً، باحثاً مستلهماً"^(١).

والآيات التي نتحدث عن دلائل قدرة الله - عز وجل - وبديع صنعه من خلال الأمطار، وإخراج الزروع وأصناف النبات، كثيرة في كتاب الله، وقد جاءت هذه الآيات تارة للاستدلال على قدرة الله ووحدانيته، وتارة في مقام منكري البعث لدلالة على قدرته سبحانه على البعث بعد الموت، وتارة أخرى في مقام الامتنان بتعداد نعم الله تعالى على خلقه، وبيان ما يؤكل من الفواكه والزرع، وقد فصلت في الآية الأولى من سورة الأنعام في هذه الدراسة كنموذج لصورة من الطبيعة الصامتة تتمثل أمام أعيننا كل يوم.

وألقت إلى صورة أخرى من هذا البيان الحاكي في صفحة الكون البديع كنموذج آخر، نستلهم من خلاله عجائب خلق الله وبديع نظمته في آيات القرآن الكريم.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ

وَأَنْهَرًا وَسْبَلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ النحل: ١٥

انتقال إلى الاستدلال، والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف الإنسان^(٢).

وقد ذكر في هذه الآية بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض، فالنعمة الأولى: خلق الجبال، والثانية: أنه تعالى أجرى الأنهار على وجه الأرض، والثالثة: أنه تعالى أظهر الجبال لأجل أن يهتدوا بها في أسفارهم^(٣).

(١) السابق.

(٢) التحرير والتنوير، ج ١٣/ ٩٦.

(٣) التفسير الكبير، م ١٠، ج ١٩، ٧-١٠.

توجه الآية الأنظار إلى هذا المشهد المؤلف الذي نراه ليلاً ونهاراً فلا يحرك مشاعرنا، لأننا ألفناه، وحين نقرأ هذه الآية تهز دواخلنا فنرى أمامنا الأنجاد الشداد، التي هي كالأوتاد، نعمة تذكرنا بها الآية، ثم تذكر ما يتفجر منها غالباً وهي الأنهار، يأتي ذلك بأسلوب متميز، وعرض مبدع فقال: "وَألقى في الأرض" أي وضع فيها وضعا، كأنه قذفه فيها قذفاً^(١)، وقال ابن عطية: قال المتأولون: ألقى بمعنى خلق وجعل، وهي عندي أخص من خلق وجعل، وذلك أن ألقى يقتضي أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض لكن من قدرته واختراعه، ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن، عن قيس بن عباد، أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، لم تدر الملائكة مم خلقت^(٢).

وقال ابن عاشور: وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض، وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها، ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض، إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلازل العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. أما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيهاً بالإلقاء شيء في شيء بعد تمامه.

ولعل أصل تكوين الجبال كان من شظايا رمت بها الكواكب فصادفت سطح الأرض، كما أن الأمطار تهطلت فكانت الأنهار، فيكون تشبيه حصول هذين بالإلقاء ببناءً وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليباً. ومن إطلاق الإلقاء على الإعطاء ونحوه قوله تعالى: ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (٣٥) القمر: ٢٥ (٣)

(١) نظم الدرر، ج ٧/٢٥٤

(٢) ابن أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان، تفسير البحر المحيط، تحقيق: د. عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١/ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ج ٥/٦١٥ وأنظر الكشف، ج ٢/٥٩٨.

(٣) التحرير والتنوير، ج ١٣/٩٦، ٩٧

وقيل بما أن لفظ "ألقى" يدل على إلقاء شيء من أعلى على شيء آخر أسفل منه، فإن العلماء يرون أن الجبال الالتوائية قد أُلقيت فعلاً من أعلى من الجبال القديمة بعد أن نحتتها عوامل التعرية، ونقلتها، وأرسلتها في البحار القديمة التي بدورها نقلتها الرياح، لتستقر مرتفعة عن سطح البحر^(١).

"رواسي" جمع راس، وهو وصف من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - ويقال: بضم الزاي والسين مشددة وتشديد الواو - وهو الثبات والتمكن في المكان، قال تعالى: "وَقَدْ وَرَّأَسَيْتَ سَبَأَ: ١٣" ويطلق على الجبل رأس بمنزلة الوصف الغالب^(٢)، فجعل الجبال مماسة للأرض ومزينة لنواحيها^(٣).

"أن تميد بكم" الميد: الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً، يقال: ماد، يميد، ميداً^(٤). وتميد بكم: كراهة أن يميل بكم وتضطرب والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر^(٥)، فهي ثابتة لأجل ذلك الإلقاء، ثابتة مع اقتضائها بالكريسة التحرك^(٦)، فهو تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض، والاضطراب يعطل مصالح الناس، ويلحق بهم آلاماً، ولما كان المقام مقام امتتان علم أن المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه، وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية معنى غامض، ولعل الله جعل نتوء الجبال على سطح الأرض معدلاً لكرويتها بحيث لا تكون بحد من الملاسة يخفف حركتها في الفضاء تخفيفاً يوجب شدة اضطرابها^(٧).

وتدل الدراسات الجيولوجية الحديثة عن الجبال أن التوازن الأرضي هو توازن لبنات القشرة الأرضية القائمة على الغلاف الصخري للأرض، وأن الجبال تملك

(١) د. فهد خليل زايد، الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، دار النفائس، عمان، الأردن، ص ٨/ط ١-١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م، ص ١٨

(٢) السابق.

(٣) نظم الدرر، ج ٤/٢٥٤

(٤) التفسير الكبير، م ١٠/ج ٢/٧

(٥) الكشف، ج ٢/٥٩٨

(٦) نظم الدرر، ج ٤/٢٥٤

(٧) التحرير والتنوير، ج ١٣/٩٧

جنوراً تمتد إلى داخل الغلاف الصخري يهدف تأمين هذا التوازن، وتمتد في الأرض، وتغوص عشرات الكيلومترات وسمي القرآن الكريم الجبال الرواسي تشبيهاً لها بالسفينة التي ترسو ويغوص جزء كبير منها في الماء، وهو ما تفعله الجبال فهي ترسو وتغوص في قشرة الأرض خصوصاً إذا علمنا أن القشرة الأرضية تتألف من مجموعة من الألواح العائمة على بحر من الحمم والصخور المنصهرة، وتتجلى هنا عظمة القرآن الكريم في دقة التشبيه وروعته في هذه الآية، لأنه من المعلوم من هندسة تصميم السفن أن السفينة يجب أن يكون لها شكل محدد لتستقر في الماء فلا تتقلب، والجبال خلقت بشكل محدد فهي لا تتقلب على الرغم من مرور السنين عليها. ويجب أن نلاحظ الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والكامن في كلمة "لَقِيَ" التي تشير بصورة مذهلة إلى عملية تكوين الجبال كما بينها علم الجيولوجيا مؤخراً، فالجبال البازلتية والجرفيتية تكونت بفعل الإلقاء، أي بما يقذفه باطن الأرض الملهب من الحمم والصهارة بفعل حركة الألواح الأرضية بعد أن تراكمت تلك الحمم بردت على مر السنين، والله أعلم^(١).

ونجد أن استعمال النص القرآني كلمة "رواسي" في وصف جعل الجبال وإلقائها من الإعجاز المدهش، إذ أن هذا اللفظ العربي يستعمل للدلالة على السفن الراسية، فكأنه هنا شبه الجبال بالسفن التي ترسو على الشاطئ، وهي طافية على الماء، فكَذلك الجبال، فإنها تطفو بواسطة الدفع الواقع على جذورها العميقة، وبهذا فإننا نجد أن اللفظ "رواسي" هو أفضل لفظ عربي يعبر عن هذا الواقع الوصفي الذي أثبتته الاكتشافات العلمية الحديثة^(٢).

وبهذا نرى دقة القرآن في استعمال الألفاظ دقة عجيبة يبقى الإنسان في كل عصر يكتشف تحتها معاني عظيمة.

(١) يوسف الملا، إعجاز القرآن في الكون والإنسان بين ثوابت العلم ومتغيراته، دار السلام،

جمهورية مصر العربية، ط ١/ ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٩٨، ص ٢٠١

(٢) د. محمد فريد عبدالله، من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، دار الموسم، بيروت، لبنان،

ط ١/ ٢٠٠٦م - ١٣٢٦هـ، ص ١٠٥

وننظر إلى اتباعه للحديث عن الرواسي بذكر الأنهار، والأنهار نعمة عظيمة، فمنها شرب الأحياء، وسقي حرتهم، وفيها تجري سفنهم، وهي منّة عظيمة^(١)، وقال أبو عبدالله الرازي: ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب أتبع ذكرها بتفجير الأنهار^(٢)، وذكر الأنهار بعد ذكر الجبال أدل دليل على ثبات الأرض، فالجبال تثبت الأرض فلا تتحرك، فإنها لو تحركت ولو بمقدار شعرة في كل يوم لأغرقت البحار من إلى جنب الانخفاض، وتعاكست مجاري الأنهار، فعادت منافعها أشد المضار، ولو زادت البحار بما تصب فيها الأنهار على مر الليل، وكر النهار، لأغرقت الأرض، ولكنه تعالى دبر الأمر بحكمته تدبيراً تعجز عن الإطلاع على كنهه أفكار الحكماء^(٣)، وتذكر الكتب العلمية أن القرآن قد سجل سبقاً علمياً، وإعجازاً قرآنياً في أن هناك علاقة بين الجبال الشامخة، والماء العذب، وأن الجبال العالية منابع مناسبة للأنهار^(٤)، لذلك جاء ذكر الأنهار في هذه الآية بعد ذكر الجبال.

ثم عطف قوله تعالى: "وسبلاً لعلكم تهتدون" على قوله: "وألقى في الأرض رواسي" والتقدير: وألقى في الأرض سبلاً ومعناه: أنه تعالى أظهرها، وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم^(٥).
وسبلاً: جمع سبيل، وهو الطريق الذي يسافر فيه برآ^(٦).

وجملة "لعلكم تهتدون" معترضة، أي رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجه يصلح للاهتمام إلى المقاصد في الأسفار من رسم الطرق، وإقامة المراسي على الأنهار،

(١) تفسير التحرير والتوير، ج ١٣/٩٧

(٢) تفسير البحر المحيط، ج ٥/٦١٥ وأنظر التفسير الكبير، م ١٠/١٩/١٠

(٣) أنظر الدرر، ج ٤/٢٥٤

(٤) أنظر الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، ص ١٨، وإعجاز القرآن في الكون والإنسان،

ص ٢١٢

(٥) التفسير الكبير، م ١٠/١٩/١٠

(٦) التحرير والتوير، ج ١٣/٩٨

واعتبار المسافات^(١)، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، وهذا التأويل هو البارع، أي: سخر وألقى وجعل أنهاراً، وسبلاً، لعل البشر يعتبرون، ويرشدون، ولتكون علامات^(٢).

وبهذا نرى أن القرآن الكريم قد نبه العقول إلى التفكير في آيات صامتات تنبئ عن خالق متفرد، وقد وجه الأنظار إلى هذه الآيات الماثلاث أمام أعيننا صباحاً وعشياً فلا نلتفت إليها، وجه العقول والقلوب إليها من خلال هذا العرض البليغ.

وإذا أردنا أن نتأمل الصورة بجميع أجزائها، نرى أن الظلال العميقة التي تلون جو السورة كله هي الآيات الكونية، تتجلى فيها عظمة الخالق، وعظمة النعمة، وعظمة العلم والتدبير... في تناسق ملحوظ بين الصور، والظلال، والعبارات، والإيقاعات^(٣).

والآية في هدونها تخاطب العقل الواعي، وتوجه إلى الوجدان الحساس، فهي تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر، والعقل ليتدبر، فهذه الجبال ألقاها في الأرض لهدف عظيم، ونرى لفظ "ألقى" بظلاله يعبر تعبيراً دقيقاً عن أسرار خلق هذه الجبال، ويعلل وجودها، بلفظ دقيق يستحيل أن يحل غيره محله، لما يحمل تحته من الأسرار والمعاني العجيبة، كما إنه يوجه النظر إلى الأنهار الجارية، والسبل السوالك بالألفاظ متلاحقة يصور لنا بدقة عجيبة تلك العلاقة المطردة بين الجبال، والأنهار، والسبل، لا تبين خفاياها إلا لمن ألقى السمع وهو شهيد، لذلك ذيل الآية بقوله: "لعلكم تهتدون" فشملت الاهتداء الحسي، والمعنوي، كل ذلك يتراءى لنا من بين الألفاظ، وبلاغتها، ودقة استعمالها، فحملت لنا معاني عظيمة، ودقائق علمية عجيبة، ولا يزال العقل عاجزاً عن كشف كنوزها، ومع مرور الأيام، وتقدم العلم وآلاته، يتكشف لنا المزيد والمزيد من تلك الأسرار العجيبة، ولا نملك إلا

(١) التحرير والتتوير، ج ١٣/ ٩٨

(٢) الإمام ابن عطية الأندلسي، تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ١٠٨٨.

(٣) في ظلال القرآن، م ٤/ ج ١٤/ ٢١٥٩

أَن نَّخْرُ سَاجِدِينَ لِمَن أُنْزِلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ، فَأُحْكَمُ آيَاتُهُ، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا أَن نَقُولَ كَمَا
قَالَ -عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾ النساء: ٨٢

هذا ما تسنى لي عرضه في هذا الموضع، من الدلائل الصامته، والبيان
الحاكي، وإلا فكتاب الله يزخر بعجائب الكون، يوجه فيها العقول، ويلفت الأنظار إلى
أن تتأمل في صفحة الكون دلائل القدرة الإلهية، والوحدانية المطلقة، لخالقه -جلت
قدرته- ويجعل العقول تتعجب، والقلوب تنفطر من بديع صنعه، فيهبز النفوس لتستيقظ
مسبحة بجلاله، وعظيم سلطانه، وصدق الله في ثنائه على نفسه: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ المؤمنون: ١١٦

**

الخاتمة

وبعد هذا الجهد المتواضع أجمل أهم النتائج التي تجلت من خلال هذه الدراسة:

١- إن القرآن الكريم لا تفنى عجائبه، وما زدته نظراً واستبصاراً إلا زادك إيماناً بأنه من لدن حكيم عليم.

٢- إن آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الأمطار وما ينتج عنها من إحياء الأرض، وإخراج الزروع، والثمار، جاءت لأهداف متعددة منها: إثبات وحدانية الله - عز وجل - وإلهيته، ومنها ما كان لإثبات البعث في مقام مجادلة المنكرين، ومنها ما جاء في مقام تعداد النعم والامتنان على الخلق، ومنها ما كان لبيان المباح من الأطعمة، والأشربة.

٣- إن القرآن الكريم يلفت الأنظار، ويوجه العقول إلى التفكير في كل ما يحيط بنا، ولن نستطيع الوصول إلى دقائق الخلق إلا من خلال تدبر الآيات التي عرضت هذه العجائب بأسلوب فريد انطوت تحته الحقائق العلمية، بثوب بلاغي معجز.

٤- توصلت الدراسة أيضاً إلى أنه لا يمكن فصل الحقائق العلمية عن الأسلوب البلاغي في مثل هذه الآيات.

٥- إن دقة اللفظ ومعرفة معناه في اللغة، مع قراءة الدراسات العلمية التي تتحدث عما توصل إليه العلم من حقائق، كل ذلك يسلمنا إلى حقيقة واحدة أن هذا القرآن من لدن خالق الكون، جلت قدرته.

٦- إن الألفاظ بجزئياتها تكون صورة متكاملة وردت في إطار بلاغي معجز.

٧- إن الفنون البليغة التي تخاطب الحس، والعقل تعتمد على ألوان متعددة من أدوات التصوير الفني، قد تكون بما تلقى الكلمة من ظلال، أو بتظافر جوانب الصورة من اللون، والحركة، والشكل، والطعم، أو بالوسائل البيانية المعروفة من تشبيه، وتصوير، وكناية وغيرها.

وبعد هذا الجهد المتواضع أوصي الباحثين المتخصصين في هذا المجال إلى تقريب مقاصد القرآن إلى أفهام الناس لا سيما في هذا العصر الذي توصل فيها العقل

البشري إلى حقائق مذهلة عن الكون والحياة. كما أوصى الباحثين في البلاغة القرآنية إلى الابتعاد عن النظريات البلاغية العقيمة، وذلك بالنزول بهذه النظريات إلى مجال التطبيق الحي، الفعال على آيات القرآن الكريم. وأوصى الباحثين في هذا المجال بالالتفات إلى الآيات القرآنية التي تتطوي تحتها حقائق علمية أثبتتها العلم الحديث، ومحاولة الكشف عن دقائقها المخبوءة تحت بلاغة اللفظ وعجائبه في القرآن الكريم، مع إمتاع العاطفة بألوان البلاغة وجمال اللفظ.

وفي الختام، أسأل الله -عز وجل- أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يجعلنا من أهل كتابه، الذين هم أهله وخاصته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ١- ابن أثير الدين محمد بن يوسف بن حبان، تفسير البحر المحيط، تحقيق: د. عبدالرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١- ١٤٣١هـ- ٢٠٠٩م.
- ٢- ابن عطية الأندلسي، تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- ٣- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار الفكر، بيروت.
- ٤- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، ١٩٦٨م.
- ٥- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. دار الفكر العربي، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٣م.
- ٦- الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.
- ٧- برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- ٨- د. حلمي القاعود، مدخل إلى البلاغة القرآنية، دار النشر الدولي، المملكة العربية السعودية، ط١- ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- ٩- د. جبير صالح الفرغولي، التصوير الفني في القرآن الكريم، دراسة تحليلية في جهود الباحثين، دار الضياء، عمان، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- ١٠- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة، طه.
- ١١- سيد، قطب، في ظلال القرآن دار الشروق، بيروت، ط٧- ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
- ١٢- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- ١٣- عبدالكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي.
- ١٤- د. فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار للنشر، عمان، ط٥- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- ١٥- د. فهد خليل زايد، الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم، دار النفائس، عمان، الأردن، ط١- ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٨م.
- ١٦- محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، دار الاتحاد العربي، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.
- ١٧- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ط١.

- ١٨- د. محمد فريد عبدالله، من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، دار المواسم، بيروت، لبنان، ط١-٢٠٠٦م، ١٤٢٦هـ.
- ١٩- د. محمد محمود القاسم، البلاغة القرآنية، دراسة في الصورة الفنية، مكتبة الرشيد، المملكة العربية السعودية، ط٢- ١٤٢٨هـ- ٢٠٠١م.
- ٢٠- محمود بن عمر الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- ٢١- يوسف الملا، إعجاز القرآن في الكون والإنسان بين ثوابت العلم ومتغيراته، دار السلام، جمهورية مصر العربية، ط١- ١٤٣١هـ- ٢٠١٠.

* * *